

سعيد سنبل

عملة . . اسمها الأمل





وفي أعقاب ٦ أكتوبر ، عاد الأمل إلى مصر .
الأمل في حياة أفضل . .
الأمل في مستقبل أكثر إشراقاً ، وأكثر لمعاناً . .
الأمل في عودة الابتسامة إلى الشفاه التي تحملت مرارة الألم سنين طويلة . .
لقد كانت آلام الشعب المصرى عظيمة ، وكبيرة . .
وكاد شعب مصر في ظل هزيمة ١٩٦٧ أن يفقد الأمل في المستقبل ، ويقع
فريسة لليأس . . والويل لشعب يقع فريسة لليأس ، ويفقد الأمل في المستقبل !
وتكاثفت قوى عديدة من أجل تحطيم نفسية الشعب المصرى . . ومن أجل
بث اليأس في نفوس أبنائه . ولكن هذه المحاولات فشلت وتحطمت في أعقاب معارك
٦ أكتوبر . لقد أثبتت هذه المعارك قدرة المصريين على التخطيط . . على التنفيذ . .
على القتال . . على استخدام الأسلحة المتطورة الحديثة . . ومن ناحية أخرى كشفت
هذه المعارك عن حقيقة العدو . . عدو يمكن قهره ، ويمكن إنزال الهزيمة به .
وتبدد اليأس . . وعاد الأمل .
ومع عودة الأمل عاد التفكير في المستقبل ، بعد أن كاد التفكير فيه يتوقف وينعدم !

وعادت الأسئلة تتردد عن المستقبل ، وما يمكن أن يحقق من أحلام عريضة واسعة لشعب عاش سنين طويلة في ظل حرمان وتقشف !

لقد تسببت هزيمة ١٩٦٧ في خلق وضع جديد في مصر ، لا أعتقد أن هناك من كان يتصور قيامه . تسببت الهزيمة في خنق الاقتصاد المصرى ، وفي توقف نمو الخدمات ، وفي انهيار المرافق العامة نتيجة العجز في الإنفاق عليها وتجديدها . تسببت في توقف نمو الصناعة ، بل في تراجع بعض الصناعات ، وظهور طاقات عاطلة فيها ، نتيجة لعدم القدرة على تجديد المصانع ، ولتقص المواد الخام اللازمة لتشغيل الآلات .

وكانت كل هذه الأوضاع نتيجة طبيعية لهزيمة ١٩٦٧ .

لقد فقدت مصر سلاحها في هذه الحرب ، وكان لا بد من تعويض هذا السلاح . . كان لا بد من إعداد جيش جديد قوى قادر على الحرب بالسلاح ، لا الحرب بالكلمات والتصريحات الخادعة المضللة . . وبناء الجيوش الحديثة المزودة بالأسلحة المتطورة يحتاج إلى أموال بالقدر نفسه الذى يحتاج به إلى رجال . . يحتاج إلى مئات الملايين من الجنهيات . . بل يحتاج إلى آلاف الملايين . وكان على مصر أن توفر هذه الملايين . . أقصد ألوف الملايين . توفرها من غذائها ، ومن كسائها ، ومن خدماتها . وبالفعل فُرِضت ضرائب جديدة على الشعب ، وتحملها الناس راضين غير معترضين . وانخفض معدل الإنفاق على التنمية . . كذلك انخفض الإنفاق على الخدمات . . كل هذا من أجل توفير الأموال للمعركة .

ومضت سنة وراء أخرى . .

وبدأت الجماهير تحس بقسوة الإعداد للمعركة .

إن الخدمات الرئيسية لا تتجدد ، ولا تتطور . حاجة الناس إلى الخدمات تزايد ، وقدرة الخدمات على مواجهة احتياجات الجماهير تقف عاجزة ! !
المواصلات . . أصبحت مشكلة كل بيت ! مرافق المياه والكهرباء وصلت إلى

مستوى من التخلف لم يكن أحد يتصوره ! الدواء . . ساعة موجود ، وساعات عديدة غير متوافر !

والغذاء أيضاً . . لم يعد متوافراً كما كان من قبل . . وبدأت مدينة كالقاهرة . . تعتاد ظاهرة الطواير التي تقف في غير نظام أمام الجمعيات الاستهلاكية ، للحصول على السلع التي يفتقر إليها السوق .

وتحمل الناس كل هذه الأعباء التي فرضتها الهزيمة العسكرية . . تحملوها من أجل يوم ترتفع فيه الرؤوس ، وتنفض الأكتاف عنها عار الهزيمة .
وجاء اليوم . .

٦ أكتوبر ١٩٧٣ . .

ارتفعت الرؤوس من جديد . . وسقط العار . .
وبدأ الحديث عن المستقبل . . برغم أن الحرب لم تنته بعد ، وبرغم أن المعارك العسكرية قد تتجدد مرة أخرى .

ومن حقّ المصريين أن يتحدثوا عن المستقبل . .
إنهم - بعد الفلسطينيين - تحملوا ما لم يتحمّله أى شعب عربي آخر على الأرض العربية . لقد ضحوا بكل ما يملكون . . لم يتاجروا بالكلمات . . لم يزايدوا بالشعارات . . إنما قدموا كل ما يملكون ، وأعزّ ما يملكون . .
قدّموا الأرواح ، والدماء ، والقوت اليومي .

صبروا . . احتملوا . . تعذبوا . . وعاشوا في ظل أقسى الظروف .
وشعب بذل كل هذه التضحيات ، من حقّه أن يتطلع إلى المستقبل .
وبدأت الأحلام الحلوة . .

وبدأ التفكير في الرخاء ، بعد سنين طويلة من التقشف والحرمان .
ولكن . . كيف السبيل إلى الرخاء ؟ كيف الوصول إليه ؟

الانفتاح . .

الانفتاح . . هو السبيل إلى تحقيق كل الأحلام ، وتبديد كل المتاعب .
وبدأت كلمة الانفتاح تردّد على الألسنة . . إنها الكلمة الجديدة التي دخلت حياة

المصريين بعد معركة العبور العظيمة . . إنها الكلمة القادرة على حل كل المشاكل وتبديد كل الصعاب !

بعد الانفتاح . . ستوافر المواد التموينية . . يتوافر الطعام . . يتوافر الكساء . . تنتهى أزمة المواصلات . . تخف حدة أزمة الإسكان . . تتوافر المقاعد فى المدارس والأسرة فى المستشفيات .

كل المشاكل تنتهى ، وتمزق بعد الانفتاح .
وكان حماس الجماهير للانفتاح أكثر من حقيقته . . وكان حديث المسؤولين عن الانفتاح أكبر من حجمه . .

لقد كثر الحديث عن الانفتاح . . حديث بالكلمات . . لا بالأفعال .
والكلمات قد تتحول إلى أوهام . أما الأفعال فهى حقيقة !
وكانت مشكلة الانفتاح ، أنها تحتاج إلى عقول مفتحة لتحول هذا الشعار إلى حقيقة وواقع . .

ويجب أن نعرف أن العقول فى مصر أصيبت بالانغلاق ، وقد انعكس هذا الانغلاق على تصرفاتنا وسياستنا فى الستينيات ، وبداية السبعينيات .
ومن أهم مظاهر الانغلاق ، ادعاء القوة والتقدم فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وهذا ما حدث لنا فى مصر منذ بداية الستينيات .
بدأنا ندعى القوة ، وندعى التقدم ، ولا نسمح برأى يخالف هذا الرأى ، أو يعترض عليه !

وقامت مراكز قوى فى مصر ، استفادت من تلك الأوضاع ، واستغلتها لحسابها . فرضت الإرهاب تحت شعارات الاشتراكية . . وأخفت انحرافاتا وجرائمها تحت شعارات الثورية !

وفى ظل هذه الأوضاع ينعدم الرأى ، وتتوقف المناقشات . .

وهذا ما حدث .

انعدمت الآراء ، وتوقفت المناقشات . . وانغلقت العقول !

كيف يكون شكل التنمية ؟

لا أحد يجيب . . كل العقول مغلقة تنتظر رأى القيادة العليا ، لتعيده ،
وتردده ، وتدعو إليه !

كيف تكون الصناعة في مصر ؟

الأفضل هو ما تراه القيادة العليا . . لا ما يراه خبراء الصناعة ! إذا رأت القيادة
أن مستقبل مصر في التصنيع الثقيل . . فليكن التصنيع الثقيل ، وعلى خبراء الصناعة
أن يبرروا لماذا التصنيع الثقيل ! !
لا مناقشة ، ولا تبادل للرأى .

وفى ظل هذا الوضع ، تجمدت قضايا عديدة .

مثلا . . هل نحن في حاجة إلى رأس مال أجنبي ؟ . . وكيف ؟

هل نحن في حاجة إلى خبرة أجنبية ؟ . . وكيف ؟

لا أحد يناقش هذه القضايا ، أو يجرؤ على إثارتها ما دامت القيادة العليا لم
تثرها ، أو تطلب مناقشتها .

لا أحد يملك القدرة على التصرف ، أو البتّ ، أو الحسم . .

وكان هذا بدوره مظهراً آخر من مظاهر الانغلاق في مصر . .

وقد كان من المفروض في أعقاب عملية التأميمات الكبرى التي تمت في ١٩٦١ ،

أن تكون هذه العملية بداية لانطلاق وبداية لبناء اقتصادى جديد . .

كان المفروض أن يكون هذا التاريخ بداية لعصر جديد في حياة مصر

الاقتصادية ، بعد أن أعيدت صياغة العلاقات الاجتماعية . . ولكن - للأسف -

عجز التطور الاقتصادى عن ملاحقة التطور الاجتماعى . وبدلاً من أن يكون التأميم

بداية للانطلاق ، تحول التأميم إلى قيود فرضتها العقلليات القائمة على إدارة القطاع

العام ، من أجل حماية أخطائها ، وحماية عجزها إزاء اتخاذ القرارات .

وظلت الأوضاع على ما هى عليه . .

وكان يمكن أن تستمر سنوات أطول ، لولا هزيمة ١٩٦٧ ، وما فرضته من

ضرورة تغيير الكثير من الأوضاع .

وكان من بين الأوضاع التي يجب تغييرها ، الوضع الذى يزعم القوة والتقدم ، فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وبالطبع . . لم يكن التغيير سريعاً أو سهلاً . . لم يكن من السهل مثلاً أن نعتزف بحاجتنا - برغم حاجتنا - إلى الاستثمارات العربية والأجنبية ، بعد أن صورنا هذه الاستثمارات بالاستغلال والنصب !

ولم يكن سهلاً أن نعتزف بحاجتنا إلى الخبرة الاجنبية بعد أن صورنا للعالم أننا قادرون على إنتاج الإبرة والصاروخ !
وبدأنا - فى أعقاب الهزيمة - نتلمس الطريق إلى هذه الأوضاع الجديدة ، بحياء وبحذر وسط استنكار المتاجرين بشعارات الاشتراكية . .

ولم يكن سهلاً أن تأخذ الدعوة فى بداية الأمر شكلها الواضح ، وإلا اهتم بأنها من صنع الرجعية والإمبريالية ! لذلك بدأت الدعوة إلى « الانفتاح » تحت اسم التيسير الاقتصادى . . واستمر استخدام هذا التعبير من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣ ، عندما ارتفع شعار الانفتاح واضحاً صريحاً .

وقد لاقت الدعوة إلى الانفتاح استجابة شعبية على أمل أن تؤدى سياسة الانفتاح إلى التخلص من المشاكل والمتاعب . . والتخلص من الحرمان الطويل . . وإن كان البعض - وهم قلة معظمها يعيش خارج مصر - زعم أن الانفتاح هو الارتداد عن الاشتراكية . . وهم بهذا يسيئون إلى الاشتراكية ويصورونها بالحرمان والانغلاق والجوع ! !

وسياسة الانفتاح هى العودة إلى التعايش مع العالم الخارجى . . هى العودة إلى فتح الأبواب والنوافذ المغلقة ، والاحتكاك بالفكر الذى يعيش وراء هذه الأبواب والنوافذ . . هى السماح لرأس المال الأجنبى بالعودة إلى العمل فى مصر بعيداً عن الاستغلال والخوف فى نفس الوقت .

ومثل هذا الأمر لا يتحقق بين يوم وليلة . . يحتاج إلى وقت ، والأهم من الوقت أنه يحتاج إلى عقول متفتحة . وقد كان من الضروري ، ونحن ندعو إلى سياسة الانفتاح أن نوضح هذه الحقيقة ، وأن نؤكد لها ، حتى لا يتحول الانفتاح

إلى شعار زائف من الشعارات التي يجيد البعض ترديدها . .
وكما قلت فإن حماس الجماهير للانفتاح كان أكبر من واقع الانفتاح . .
وهذا حق للجماهير . . وفي نفس الوقت كان حديث المسؤولين عن الانفتاح
أكثر وأكبر من حجمة وواقعة . . وهذا خطأ .
الواجب ألا نفرق الجماهير في الأمل . . وإلا تحول الأمل إلى وهم . . وإلى
سراب !

إن تحقيق سياسة الانفتاح تحتاج إلى أمور كثيرة . .
نحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى عقول متفتحة مؤمنة بما تفعله ، وقد عشنا سنين
طويلة وعقولنا مغلقة . . لذلك لن يكون سهلاً علينا أن نتغير في يوم وليلة .
إنني أتصور مرحلة انتقال . . ستة أشهر . . سنة . . أو سنتين . . تنتقل فيها
العقول من حالة الانغلاق إلى حالة الانفتاح . بعدها تبدأ القدرة على حل المشاكل ،
وتبدأ القدرة على التخلص من الأزمات والاختناقات . . وتبدأ القدرة على العودة إلى
الحياة الطبيعية . . والانطلاق بعد ذلك إلى تحقيق الأمل في المستقبل .
إنني متفائل . . لأننا نملك عملة جديدة اسمها الأمل .